المؤتمر العالمي السادس
لبديع الزمان سعيد النورسي

العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور

(البحوث العربية)

ISBN: 975-6438-14-2
Publication: Söz Basım
Year: 2002, İstanbul

أخلاقيات العولمة وسبيل مواجهتها في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

الدكتور زياد خليل الدغامين(*)

مقدمة:

إنّه من المؤكد أنّ مصطلح العولمة (Globlization) من المصطلحات حديثة الظهور، وإن كان مضمونها حاضرا على صفحات التاريخ البشري، بل قبل تاريخ البشر! إذ في مقولات إبليس كما وصف القرآن على لسانه: "**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**" (ص: 82) وقوله: "**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**" (الحجر: 39) وقوله: "**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**" (الأعراف: 16) وقوله: "**لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ**" (النساء: 119) أقول: في هذه المقولات كلّها تأكيد على أهداف حرب حزب الشيطان التي يشنّها على الحقّ وأهله، فالنمط الذي يدعو إليه هو نمط الغواية والضلال والانحراف الخلقي والسلوكي والعقائدي، هذا النمط هو الذي يجب أن يفرض – في نظر هذا الحزب – على الناس كلهم، وهذا منطق القوّة العمياء المتمثل في "المدنية الحديثة" كما يرى الأستاذ بديع الزمان، فهي صاحبة مشروع العولمة والمسؤول المباشر عنه.

والقارئ في رسائل النور التي ألفّها الأستاذ بديع الزمان يجدها في أهدافها قد صيغت لتنطق بالثبات في وجه العولمة، بل لتجابه هذه العولمة مبينة أخطارها وعوارها، فـــ"المدنية الحديثة هدفها ومقصدها منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة التزاحم والتخاصم،

(*) أستاذ التفسير المشارك، وعميد كلية الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل البيت – الأردن.

ومن هنا تنشأ الجناية... وخدمتها الجذابة تشجيع الأهواء والنوازع وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائما: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنويا"[1].

إذن، العولمة إملاء لثقافة القويّ السريع الغالب على الضعيف البطيء المغلوب، والنورسي بدوره لّما رأى هذه الهجمة التي ترتكز على منطق القوّة الأعمى على الإسلام وأهله قام برسائل النور يحفظ إيمان العوام من الذهاب أو الانحراف في مستنقع الرذيلة هذا، وتناول الموضوع من أكثر من زاوية، وتحدّث عن الأخلاق من اكثر من ناحية، بل بيّن أخطر الميادين الأخلاقية التي تسعى المدنية الحديثة لتدميرها لدى المسلم، وإحلال ثقافة التبعية مكانها، وذلك إمعانا في طمس الهوية الحضارية – الإسلامية- لهذه الأمّة، وبعد التطواف في رسائل النور، وتتبع أفكار بديع الزمان في هذه السياق، وجدت أنّه يمكن تصنيفه ليشمل ثلاثة ميادين، سنجعلها في ثلاثة مباحث، ونضيف في البداية مبحثا نعرّف فيه بأخلاقيات المدنية الحديثة صاحبة مشروع العولمة كما يراها النورسي، لتقع الدراسة في أربعة مباحث، هي:

المبحث الأول: أخلاقيات المدنية الحديثة وموقفه منها.

المبحث الثاني: أخلاقيات العولمة في ميدان السياسة.

المبحث الثالث: أخلاقيات العولمة في ميدان الاقتصاد.

المبحث الرابع: أخلاقيات العولمة في ميدان حقوق المرأة.

وننهي بخاتمة نذكر فيها أهم نتائج هذه الدارسة، وبالله التوفيق والهداية.

المبحث الأول

أخلاقيات المدنية الحديثة وموقفه منها

يوجّه النورسي دعوة إلى علماء الاجتماع وعلماء الأخلاق ليروا الفرق الهائل بين أخلاقيات الشريعة المعتمدة على الإيمان وأخلاقيات المدنية الحديثة، مدنية أوروبا، فيقرر أنّ مبدأ الإيمان أساس ترتكز عليه كليات الأخلاق، وحين تفتقر المدنية الحديثة إلى هذا الأساس فسيستولي الحقد والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع بدلا من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبّة والتضحية ورضى الله والثواب الأخروي، وكانت معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمة ومسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية التي يظهرونها، وحينئذ تتسم الحياة بوقاحة وإهمال أطفالها، وسكر وعربدة شبابها، وظلم وتجاوز أقويائها، وبكاء وأنين

شيوخها... فلترن آذان الاجتماعيين والأخلاقيين من المعنيين بشؤون الإنسان لتعرف الحقّ والحقيقة.[2]

وهو ما أكده الأستاذ محمد فتح الله كولن من أنّ النورسي رأى أن أهم مشكلة يجب تناولها هي مشكلة الفوضى النابعة من الفكر والإلحاد، لذا قضى حياته كله وهو يؤكد لإنسان عصرنا ضرورة معالجة هذا الداء... لقد عاش في الوقت الذي أصبح فيه العلم والفلسفة أداة لدفع الناس نحو الإلحاد، وفي الوقت الذي تمّ فيه غسل الأدمغة بالشيوعية، والذي كان ينفى فيه ويهجّر من يرفع صوته ضدّ هذه السلبيات من مدينة لمدينة، ومن بلدة إلى أخرى، والأغرب من هذا أن كل هذه العمليات كانت تحدث باسم المدنية والمعاصرة التي انقلبت فيها المفاهيم حتى أصبحت الحركة الفوضوية حركة واسعة منتشرة تحمل سحرا وجاذبية .[3]

ومن ثم تناول رحمه الله أزمة المفاهيم التي تطلقها المدنية الحديثة حتى بات على يقين أنّها مفاهيم معكوسة برّاقة، فيقول: "إنّ ما تراه المدنية ترقيا ما هو إلا سقوط، واقتدارا ما هو إلا ابتذال، وانتباها ما هو إلا انغماس في نوم الغفلة، ونـــزاكة ما هي إلا رياء نفاقي، وذكاوة ما هي إلا دسائس شيطانية، وإنسانية ما هي إلا قلب الإنسانية حيوانية[4]. وليست هذه المفاهيم فحسب، بل كل المفاهيم المتصلة بالسياسة والاقتصاد وقضايا المرأة كلها مفاهيم مغلوطة عند النورسي: لأنّها لا ترتكز على قاعدة الإيمان بالله تعالى، وسيأتي بيانه.

من هنا – كذلك – توجّه نقد النورسي وذمّه للمدنية المعاصرة مروّجة شعار العولمة من حيث كونها تنشر الكفر، وتعمل على خواء الروح وفقرها، فكيف لمن أصيب في قلبه وعقله ووجدانه وروحه بمصائب هائلة أن يسعد بكونه في ذروة الرفاه والزينة بجسمه؟ هذه الحالة الجهنمية هي التي أهدتها المدنية أو العولمة للبشر، ثم تفطنت لهذا الداء العضال دواء يبطل الحسّ بالجملة، وهو الملاهي الجذّابة، والهوسات الجلابة، فتعسا لها ولدوائها [5] .

لقد خاطب النورسي بقسوة شديدة تناسب شدّة استخفاف أوروبا بالإنسان وأخلاقه، مبيّنا أنّ أوروبا قد أفسدت البشرية بتعاليمها وهوت بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، ولا علاج ولا دواء لها إزاء هذا الوضع إلا ملاهيها الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحسّ وتخدير الشعور[6].

إنّ المدنية الزائفة – في فكر النورسي – مسؤولة عن تشتت الأفكار، وتدني الأخلاق[7] ومن هنا رفض النورسي دعوة تلاميذ المدنية السفيهة الضالة وطلبة الفلسفة السقيمة المضلّة الذين سكروا باحتراصات عجيبة، وتفرعنات غريبة، رفض دعواهم إلى اتباع عادات الأجانب، وترك شعائر فيها شعور وإشعار بأنوار الإسلام[8] مشيرا إلى شعائر الإسلام وقيمه العليا ذات الأثر النيّر على قلوب بني البشر.

لقد أصبحت المدنية بما توصلّت إليه من معجزات في عالم الاتصال، ووسائل الإعلام أشدّ خطر وفتكا بالإنسانية، يتنبّه النورسي إلى هذا الملحظ، فيقول: إعلم أنّ المدنية السفيهة المصيّرة للأرض كبلدة واحدة يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم، وبما لا يعني بالجرائد صباحا ومساء، غلظ بسببها، وتكاثف بملاهيها حجاب الغفلة، بحيث لا يُخرق إلا بصرف همّة عظيمة، وكذا فتحت لروح البشر منافذ غير محدودة نظّارة إلى الدنيا يتعذّر سدّها إلاّ لمن خصّه الله بلطفه [9].

ولا شك أنّ الإعلام مظهر خطير من مظاهر العولمة تذلّله المدنية الحديثة من أجل زعزعة الأخلاق الإسلامية، ونشر ما يوهن العزّة والإقدام حتى أهلكوا الأفكار العامّة السائدة بما يُبثّ في الصحف والمجلات، ولذلك قام يتصدّى لهذه الحملة، ويهاجم أرباب الصحف والمحرّرين، ودعا في مواجهة ذلك إلى [10]:

- التأدّب بالآداب الإسلامية الفاضلة.
- تنظيم برنامج المطبوعات بما في الوجدان من شعور ديني ونيّة خالصة
- ضرورة التميز عن أوروبا وفلسفتها وأخلاقها، فالثورة الفرنسية ليست دستورا لنا، واستانبول ليست أوروبا، والأولى التفكر بمتطلبات الوقت الحاضر بدل إشغال الناس بتطبيق نظريات أوروبا وفلسفتها.

ولا ينبغي أن ينصرف الذهن إلى أنّ النورسي يعارض المدنية والتحضّر والرقيّ فلطالما بيّن في رسائله قيمة هذا التحضر والرقيّ، وما له من أثر في سعادة الإنسانية، إنّه مع انتقاده سيئات المدنية الحاضرة وبيانه نواقصها وما جنته على البشرية من دمار — لم يعارض إنتاجها المادي كالراديو وركوب القطار والطائرة... [11]

ويبيّن أنّ "الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها ولا يسعها ذلك" [12].

ولذلك يتعامل مع المدنية الغربية على أساس دستور: خذ ما صفا، دع ما كدر" وفي ضوء هذا الدستور سيأخذ من الأجانب كل ما يعين على الرقّي من علوم وصناعات أما العادات والأخلاق السيئة فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبيّن قبحها كثيرا لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة [13].

وحين سئل النورسي – صراحة – عن سبب ترك ما كان يدعو إليه من ضرورة التحضّر والتمدن والرقي، ثم عاد ليصف المدنية بأنّها دنية فأجاب: "أنّ المدنية الحاضرة الغربية لسلوكها طريقا مناقضا لأسس دساتير السماء وقيامها بمناهضتها، فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها، وثقلت كفة أضرارها على فوائدها، فلقد اضطرب أمن الناس واطمئنانهم، واقلقوا وأسنت سعادتهم الحقيقية فاختل ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها، حيث قد حلّت بسببها نوازع الإسراف والسفاهة محل بوادر الاقتصاد والقناعة، واستمرأت ميولّ الكسل والدّعة وهجرت مرعى السعي والعمل، ولقد ألبست هذه المدنية البشرية المضطربة لباس الفقر المدقع، وكستها أثواب الكسل والتقاعس الرهيب[14] وهذا كلام مستمد من حكمة القرآن الكريم وآدابه، ومن هنا يقرر النورسي أن المدنية الإسلامية ستسبق مدنية أوروبا، وذلك بتكامل الوسائل التي يتوقف عليها العلم، وسنركب مباشرة المنطاد والقطار فنسبقهم بفراسخ وفراسخ، وذلك بما تسهل لنا هضم تلك الوسائل حقيقة الإسلام الجامعة للأخلاق الإسلامية والاستعداد الفطري الكامن فينا، وفيض الإيمان الذي نحمله [15].

المبحث الثاني

أخلاقيات العولمة في ميدان السياسة

إنّ مجموعة رسائل الشعاعات والملاحق الثلاثة التي تصوّر دفاعات النورسي أمام ما عقد له من محاكمات في مدن شتى لهو أقوى مظهر على تغلغل العولمة بكل صورها ومظاهرها وميادينها في المجتمع التركي ونظام حكمه بعد سقوط الخلافة العثمانية، وقد أبرزت بكل وضوح موقفه من العولمة – المدنية الحديثة – بقوانينها ودساتيرها وأخلاقياتها التي انطبعت فيمن جروّه إلى مثل هذه المحاكمات. إنني أفهم هذه المحاكمات على أنها محاولات شجاعة من النورسي للتصدي للعولمة ومفاهيمها من أجل الحفاظ على شخصية الأمّة من الذوبان في بوتقتها، إنّها محاولة للثبات في وجه العولمة بكل قيمها وأخلاقها، بل لو أردتّ أن تقرأ رسائل النور على أنها ألّفت لتواجه هذا التحدّي الجديد

الذي يواجه الأمّة، وهذا الخطر العظيم الذي يحدق بها لكنت محقّا في هذه القراءة، مع أنّ العولمة قد تجلّى خطرها وأثرها بعد وفاته رحمه الله.

فعلى صعيد السياسة يبيّن النورسي ما سادها من أخلاقيات كالتعصب والعنصرية والدكتاتورية والاستبداد، فيبيّن أنّه قد ظهر بظهور المدنية الحديثة مفاسد أخلاقية كثيرة فالتعصب العنصري، والأنانية، والدكتاتورية العسكرية التي أعقبت الحرب العالمية، وما أفرزته الضلالة من القسوة وعدم الرحمة ساد أشدّ أنواع الظلم وأشدّ أنواع الاستبداد بحيث لو قام أهل الحقّ بالدفاع عن حقوقهم بالقوّة لأصاب الكثير من الأبرياء والضعفاء أشدّ الظلم نتيجة الحيدة عن العدل، هذا هو السبب والحكمة من تهربنا الشديد ونفورنا من التعرض للسياسة وللحكم وذلك بأمر القرآن [16].

ولما كانت أخلاقيات السياسة كما تقدّمها المدنية الحديثة تسمح بأن يعاقب مائة بجريرة واحد، بل قد يُباد شعب ويُهجّر لأجل ظنَ وتهمة * يصف النورسي العولمة التي هي مدنية الكافرين — من هذه الناحية – بأنّها وحشة مستحالة، ظاهرها مزيّن، باطنها مشوّه، صورتها مأنوسة، سيرتها موحشة [17].

لقد سعى الأستاذ بديع الزمان إلى بيان خطر السياسة حين تتجرد من الأخلاق والقيم والفضائل، فذكر أنّ السياسة الحاضرة الدائرة رحاها على المنافع وحش رهيب، فالتودّد إلى وحش جائع لا يدّر عطفه، بل يثير شهيته، ثم يعود ويطلب منك أجرة أنيابه وأظفاره [18]. وكأنّ النورسي بهذه العبارات يصف واقع السياسة العالمية اليوم، وتجلّي هذا الوحش المعروف بالنظام العالمي الجديد — أحادي القطب – الذي تقوده الولايات المتحدة.

لقد وصف السياسة أنّها ألاعيب وكذب وأوحال ملوثة منتنة، ووصل إلى قناعة أنّ السياسة مستنقع عفن، هكذا هي في الواقع، وهكذا تقدمّها المدنية الحديثة: لأنّ طرف حبالها بأيديها [19]. وهذا يوحي بهيمنة الغرب على سياسات الدول الضعيفة وخاصة بلدان العالم الثالث.

يقول: إنّ السياسة الحاضرة بكثرة الكذب والحيلة والشيطنة فيها صارت كأنّها وسوسة الشياطين، فلا حق لهذه الوسوسة السياسية أن ترتقي إلى مقام تبليغ الوحي[20]. وذلك حين سئل عن عدم تعرضه للسياسة في دروسه.

إنّ السياسة التي لا ترتكز على الخلق الفاضل والأمانة والصدق شرّ حقيق بأنّ يستعاذ بالله منه، ولذلك كان النورسي محقا حينما استعاذ بالله من شرّ الشيطان وشرّ السياسة:

لأنّ لما رأى أحدهم يطعن في رجل فاضل ذي أمانة وخلق لأنه ليس من حزبه، في الوقت الذي يثني فيه على رجل فاسق لأنّه من حزبه عندها يظهر أن السياسة بهذا المنطق تسبطن شرورا وآفات لا حصر لها [21].

بل إنّه فضل حياة البداوة على المدنية الحديثة الممزوجة بالاستبداد والسفاهة والذلّ التي تجعل من الأشخاص فقراء وسفهاء وسيئي الأخلاق [22].

ويتعرض النورسي لمفهوم "الحرية" حيث حاولت المدنية الحديثة العبث به فأخرجته عن حدّ الاعتدال، يبيّن النورسي المعنى الحق للحرية، فيقول: إنّ الحرية الحسناء ما هي إلا تلك المتأدّبة بآداب الشريعة والمتزينة بفضائلها، وليست تلك التعي في السفاهة والرذائل، بل تلك حيوانية وبهيمية وتسلّط شيطاني، ووقوع في أسر النفس الأمّارة بالسوء، وحليّ الفضيلة والتربية الإسلامية، وليست هي مسلك البلشفية أو مذهب الإباحية [23].

وعن مفهوم "العدالة" التي تعظم الحاجة إليها في ميدان السياسة، يبيّن النورسي كم عبثت المدنية الحديثة بهذا المصطلح، فوصف المدنية بأنّها مضللة للعدالة في سبيل إرضاء الزندقة والإلحاد فتراها تلاحق من ينطق بالحقّ، ويدعو الناس إلى نور القرآن [24]. أقول: وما الشعاع الرابع عشر إلا بيان لعوار سياسة المدنية الحديثة التي تضطهد الرأي الآخر ولا تسمح له بالبقاء والوجود.

يجب أن تتحقّق العدالة والحرية على المستوى الشخصي فيعبّر كل إنسان عن رأيه دون كبت أو اضطهاد، لكن المدنية الحديثة لم تسمح حتى بأبسط هذه الحقوق، ويعبّر النورسي عن هذه الحقيقة بأجلى بيان حين يذكر ردّا على ما اتخذته محكمة التحقيقات وقرار مجلس الوزراء من منع نشر رسالة المعجزات القرآنية لورود شرح ثلاث آيات قرآنية، هذا الشرح يعارض القانون المدني الحالي ويصادم المدنية، وهي آية الحجاب وآية "**فلأمّه السدس**"، وآية "**فللذكر مثل حظ الأنثيين**" [25]. فالتساؤل هنا قائم على مدى قبول أخلاقيات سياسة العولمة للرأي الآخر!!

لقد أعلن النورسي رحمه الله أمام محكمة آفيون وحذّر كل التحذير من الانقياد لقوانين ودساتير غير أخلاقية للمدنية السفيهة، إنّها قوانين جائرة وحشية كما هي في البلشفية، وحذّر من الانحياز إليها تحت ضغوط أعدائنا ودسائسهم، فليس هناك قانون في العالم كلّه ولا إنسان يملك ذرّة من الإنصاف يُكره الآخرين على قبول ما عندهم بترك ما عندنا [26].

إنّ من شأن اتباع دساتير الغرب وقوانينه أن يؤدّي إلى إنكار جوهر الحياة الاجتماعية الإنسانية لا سيما للأمّة الإسلامية الذي يقوم على المحبّة الخالصة بين الأقرباء، والرابطة القوية بين القبائل والطوائف، والأخوّة المعنوية التعاونية تجاه اخوته المؤمنين، ووجود علاقة فداء نحو قومه وجنسه، ووجود رابطة قوية لا تمتز مع الحقائق القرآنية، إنّ إنكار كل هذا يؤدّي إلى قبول الخطر الأحمر الذي يتربص بنا في الشمال الذي يبذر بذور الفوضى، ويحاول القضاء على الأجيال وعلى القومية، ويحاول إزالة شعور القرابة وشعور القومية، وإفساد المدنية البشرية والحياة الاجتماعية إفسادا تاما[27].

إنّ الحلّ في نظر النورسي يكمن في نبذ تقليد أوروبا، ونبذ التمسك بأذيال قيمهم ورقيّهم، ونبذ الاستبداد، لأنّه لا يأتي بالأمن ولا بالاستقرار، ويخاطب من يدعو إلى تلقف عولمة المدنية الحديثة في شتى المجالات بقوله: إن كانت غايتكم من سوق المؤمنين قسرا إلى المدنية تسهيلا لإدارة دفة النظام وبسط الأمن في ربوع المملكة، فاعلموا جيدا أنّكم على خطأ جسيم، إذ تسوقون الأمة إلى هاوية طريق فاسد، لأن إدارة فئة من الفاسقين الفاسدين أخلاقيا، والمرتابين في اعتقادهم وإيمانهم، وجعل الأمن والنظام يسود فيما بينهم لهو أصعب بكثير من إدارة ألوف الصالحين المتقين، ونشر الأمن فيما بينهم[28].

ويوضح أكثر أن الأمن السياسي لن يتحقق باتباع مفاهيم العولمة، ويقرر بكل صراحة أن المسلمين ليسوا بحاجة إلى من يحثهم على حب الدنيا والحرص عليها كما تسعى إلى ذلك العولمة، ولا يحصل الرقي والتقدم ولا ينشر الأمن والنظام في ربوع البلاد بهذا الأسلوب، بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم، وبث الثقة فيما بينهم، وتسهيل وسائط التعاون فيما بينهم، ولا تتم هذه الأمور إلا باتباع الأوامر المقدّسة في الدين والثبات عليها من التزام التقوى من الله سبحانه وابتغاء مرضاته [29].

إنّ العودة إلى الذات والانطلاق من مقومات التصوّر الإسلامي والتخلّق بأخلاقيات القرآن الكريم كفيل بأن يرقى الأمة إلى خير مما عليه مدنية الغرب ويرى أنّ القوى الخمس التي تؤهل الإسلام للرقي المادي تتمثل في قوّة الحقيقة الإسلامية والحاجة الملحة، والحرية الشرعية، والشهامة الإيمانية، والعزّة الإسلامية [30].

ويرى النورسي — كذلك - أن المسلمين لو أظهروا بأفعالهم وسلوكهم مكارم أخلاق الإسلام، وكمال حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان في الإسلام جماعات وأفواجا، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام، إن البشرية التي أخذت تصحو وتتيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا

يمكنها أن تعيش هملا بغير دين، بل حتى أشد الناس إلحادا وتنكرا للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف... وما لم يوجد في صدفة القلب جوهر الدين الحق، فسوف تقوم قيامات مادية ومعنوية على رأس البشر، وسيكون أشقى الحيوانات وأذلّها[31].

بل يذهب النورسي – وفق معطيات الوحي – إلى أبعد من ذلك، ويتنبأ بظهور المدنية الإسلامية بقوله: لما كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى، بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن، وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل ومؤشر قوي على قرب انهيارها، وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدنية آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب [32].

إنّ العولمة في صورتها المعاصرة عند النورسي تسير باتجاه بعيد جدا عن حكمة الخلق وغايته، فيقول: يامن يدعو المسلمين إلى الدنيا أخطأت، أتحسب أيّها الغافل أن المطلوب بالذات من الإنسان عمارة الدنيا، واختراع الصنايع وتحصيل الرزق، وغير ذلك مما يعود على الدنيا؟ والحال أن صاحب الملك الذي أمره بين الكاف والنون يقول بقول يصدقه الوجود والكون والواقع وتجهيزات الفطرة الإنسانية "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" [33].

إنّ التصور الصحيح للسياسة في فكر النورسي هو ان تكون السياسة عاشقة لنور حقائق القرآن الكريم [34].

المبحث الثالث

أخلاقيات العولمة في ميدان الاقتصاد

إنّ الميدان الاقتصادي هو من أخطر ميادين العولمة إن لم يكن أخطرها على الإطلاق، لما له من أثر على مختلف ميادين الحياة الإنسانية، لأنه يعني بكل وضوح هيمنة النمط الاقتصادي الغربي بكل نظرياته وسلوكياته على شعوب الأرض وأممها وهو ما عبّر عنه بعض منظري فكر العولمة بقوله: نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي الأمركة، والولايات المتحدة قوة مجنونة، نحن قوة ثورية خطيرة، وأولئك الذين يخشوننا على حق، إنّ صندوق النقد قطة أليفة بالمقارنة مع العولمة، في الماضي كان الكبير يأكل الصغير، أما الآن فالسريع يأكل البطيء [35].

على الرغم مما يبدو من رفاهية ورغد عيش تنعم بها المدنية الحديثة صاحبة مشروع العولمة إلا أن العالم الإسلامي معرض عنها كل الإعراض – كما يقول النورسي – والسبب أنها كبّلت المسلمين بالأغلال، بل صارت سمّا زعافا للإنسانية بدلا من أن تكون لها ترياقا شافيا، إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشر في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة في سعادة مزيفة، وتعيش العشرة الباقية في حيرة بين هؤلاء وهؤلاء، وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة [36]. لأن مبدأ العدالة منتف تماما من نظمها الاقتصادية، ومن أخلاقياتها تجاه بني الإنسان، فتجمع الأرباح في أيدي ثلة من الناس بسبب الربا الذي يمثل "إيدز" الاقتصاد لهو دليل قاطع على تجرّد العولمة عن أي أساس أخلاقي.

وكما أن دعاة العولمة هم في ميدان السياسة وحوش ضارية، وذئاب جائعة، وكلاب مسعورة، كذلك هم في ميدان الاقتصاد على حدّ تعبير النورسي الذي يقول إن معظم هؤلاء المدنيين لو قلبت باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدبّ والخنـــزير [37] بسبب فقدان العولمة بوصلة الاتجاه الذي يدلّها على الإيمان، ويكسبها ثوب العفة والفضيلة والرحمة والشفقة تجاه بني جنسهم.

إنّ المدنية الحديثة قد أطلقت العنان لشهوات النفس وحظوظها غير آبهة بما يعرف بالاقتصاد الذي هو العزّة والكرم بعينه، بينما الخسّة والذلّة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون المبذرون من سخاء ظاهري، يبيّن النورسي هذا ويقرر أن بعد الحرب العالمية الثانية اضطرت البشرية إلى التشبث بالاقتصاد والالتفاف حوله عنوة [38].

إنّ الإسراف وعدم القناعة وأكل الحرام تتنافى مع الحكمة الإلهية، وأن الاقتصاد والقناعة تنسجم مع الحكمة الإلهية، وعليه ترتكز أخلاقيات النظام الاقتصادي كما يصوّرها النورسي في رسالة الاقتصاد ويبيّن أن اليهود يحصلون على أرزاقهم كفافا بطرق غير مشروعة ممزوجا بالذل والمسكنة بسبب حصرهم وتعاملهم بالربا وإتباعهم أساليب المكر والخداع [39].

لقد انطلق النورسي إلى الاقتصاد في معناه الضيق الذي يعني حدّ الاعتدال في الإنفاق بلا إسراف ولا تقتير: لأن حدّ الاعتدال هذا يؤدي إلى الاعتدال في استثمار المال وتحصيله وإنفاقه، إنه اعتدال يتكئ على جملة من الحقائق القرآنية المتعلقة بالمال والمستندة إلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

أما الاقتصاد في معناه الواسع فقد وضع الأستاذ بديع الزمان قانونا مفاده أن انتعاش الاضطرابات يكون بموت الزكاة وحياة الربا، وذلك أن محرك جميع أنواع السيئات والأخلاق الدنيئة ومنبعها كلمتان:

الأولى: إن شبعت أنا فما لي إن مات غيري من الجوع.

الثانية: تحمّل أنت المشاق لأجل راحتي، اعمل أنت لآكل أنا لك المشقة وعليّ الأكل.

إنّ الكلمة الأولى الغدارة النهمة الشنعاء هي التي زلزلت العالم الإنساني. فأشرف على الخراب، والكلمة الثانية الظالمة الحريصة الشوهاء هي التي هارت بترقيات البشر فأوشك أن تنهار بها في نار الهرج والمرج[40].

ولذلك يقرر أنّ على البشرية قتل جميع أنواع الربا، إن كانت تريد الحياة، ويعالج من خلال الزكاة الإشكالية القائمة بين الخواص والعوام، أو طبقة الأغنياء والفقراء، حينما تنقطع صلة الرحم بين طبقة الخواص والعوام ينطلق من العوام أصداء الاضطرابات، وصرخات الانتقام، ونفثات الحسد والحقد، وتنـــزل من الخواص على العوام نار الحقد والتحكم، ورعد التحقير، هذا كله بسبب إهمال وجوب الزكاة وحرمة الربا المؤديّن إلى انفراج المسافة بين الطبقات [41].

ويقرر النورسي بما هو ثابت بالتجربة وبالرجوع إلى وقائع الأحداث أن دفع الزكاة والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة، بينما الإسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة [42].

المبحث الرابع

أخلاقيات العولمة في ميدان حقوق المرأة

تعنى المدنية الحديثة اليوم بالمرأة وقضاياها، وتوليها اهتماما وعناية فائقة، وتطرح مفاهيم حول حقوقها، ويجب أن ينظر البشر إلى حقوق المرأة من خلال ما تراه المدنية الحديثة، والنورسي ذلك الجبل الشامخ في وجه رياح العولمة يقف على هذا الصعيد مبيّنا عجز هذه المدنية إزاء إعجاز القرآن الذي يتحدّى به كل مفاهيم العولمة في شؤون المرأة وحقوقها.

ومن الأمثلة على ذلك أن المدنية الغربية اليوم تدعو إلى المساواة في الميراث بين الرجل والمرأة، وتستكبر أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين هذا أولا، وأما ثانيا فهي تحرم الأم من الميراث، ومن خلال هذين المثالين يبين النورسي مدى الظلم والإجحاف في الحقوق

المدنية للحضارة الحديثة التي تخالف أحكام القرآن الكريم، ففي قوله تعالى :"**وللذكر مثل حظ الأنثيين**" (النساء: 76) تتجلّى الحكمة والعدالة وعين الرحمة، وذلك أن نفقة المرأة على زوجها واجبة، لهذا نقص نصيبها في الإرث هذا جانب العدل، أما جانب الرحمة فيه، فهو أن الأب لا ينظر إلى ابنته بتلك التي ستذهب بنصف ثروته إلى الأجانب، ولا الأخ يرى فيها منافسة له يمكن أن تبدّد نصف ثروة أبيهما بوضعها في يد الأجانب، وعليه فلا يعكر صفو تلك الرحمة والحماية حقد ولا كدر، ومع أنها تفقد في ظاهر الأمر شيئا قليلا — من المال – إلا أنها تكسب بدلا منه ثروة لا تفنى من شفقة الأقارب وعطفهم عليها ورحمتهم بها" [43].

ويؤكد أن المدنية قد ظلمت المرأة بإعطائها إن كانت بنتا أكثر من حقّها، واقترفت ظلما أدهى وأنكى بحق الوالدات، وذلك بحرمانهن من حقوقهن، وهذا ظلم مريع وعمل إجرامي وإهانة بحقّهن، فان لم يدرك هذا وحوش البشرية الذين يدّعون خدمتها، فإنّ حكم القرآن: "**فلأمّه السدس**" (النساء: 11) هو عين الحقّ ومحض العدل [44]. هذه الكلمات هي التي زجّت برسائل النور مع صاحبها في غياهب السجون!!

ومن الأمثلة الأخرى التي حاولت المدنية الحديثة تعميمها على البشرية قضية التبرج وترك الحجاب بزعم أنه من حقوق المرأة ومن دواعي حريتها التي يجب أن تتمتع بها، وإزاء هذا الوضع يطرح النورسي شعارا يقول: إذا تأنث الرجال بالتهوّس! ترجّل النساء بالتوقّح! ليبين به آفات العولمة على صعيد هذا الحق من حقوق المرأة! لأن في تكشف النساء تكشف عن الأخلاق السيئة في الإنسان المتحضر [45].

إن العولمة — المدنية الزائفة – في فكر النورسي لا ترى في الحجاب أمرا فطريا للنساء، بل تعدّه أسرا وقيدا لهنّ، لذلك قام يبرهن على أن الحجاب مما تقتضيه فطرة النساء، وذلك أن رقّة الطبع وسرعة التأثر في المرأة ترغبهن فطرة في الحجاب حذرا من التعرض والتجاوز عليهن لئلا يكنّ موضع تهمة من قبل أزواجهن فإفساح المدنية السفيهة المجال للتبرج يناقض الفطرة الإنسانية، وذلك للأسباب الآتية:

- إنّ رفقة الزوج للزوجة لا يكون في الحياة الدنيوية فقط، بل هو رفيق لها في حياة أبدية خالدة، فإزاء هذا لا بدّ للمرأة أن تخص زوجها وحده بجمالها ومفاتنها وتقصر محبتها به، والمطلوب شرعا أن يكون الزوجان متكافئين في الدين الذي هو أهم مظاهر الكفاءة، وما دام المصير الذي يربطهما مصير أبدي فتقليد أحدهما للآخر في التديّن أمر

ضروري: لئلا يفقد أحدهما الآخر فالويل والثبور لزوجين يقلّد أحدهما الآخر في الفسق والفجور فيتسابقان في دفع بعضهما في النار.

- إنّ التبرج مخلّ بالثقة بين الزوجين ويؤدّي إلى انبعاث إحساس دنئ وشعور سافل قبيح في النفس، فضلا عما تسببه من زوال ذلك الحبّ الخالص والنظر المحرّم – الذي تتيحه المدنية – إلى مواضع الفتنة في المرأة سقوط مريع للإنسانية تقشعر من بشاعته الجلود.

- إنّ التبرج يحدّ من الزواج، ويقلّل من التكاثر، ويطلق الشهوات من عقالها، وهذا يؤدّي حتما إلى الإفراط وتجاوز الحدود، والى ضعف النسل، وانهيار القوى وانتشار الفاحشة، ولذلك كان من العدل أن تصبح تلك السيقان المدججة بسلاح الفتنة الجارح حطب جهنم يوم القيامة [46].

لقد تفطن النورسي إلى تلك المنظمات السرّية التي تسعى لإضلال الشباب وتعكير صفو الحياة الأسرية، بتذليل سبل الشهوات أمامهم وسوقهم إلى السفاهة والغواية لإفساد المجتمع الإسلامي كذلك، والإضرار بالدين الإسلامي، كما أحسّ بوجود منظمات تعمل في الخفاء، وتسعى سعيا حثيثا لدفع الغافلات من النساء إلى طرق آثمة، وأدرك أن ضربة قاصمة على هذه الأمة الإسلامية تأتي من تلك الجهة في مقابل هذا كله يطرح النورسي التربية الدينية بوصفها علاجا فعّالا لمقاومة أخلاقيات العولمة على صعيد ما تطرحه العولمة للمرأة من حقوق، فيدعو إلى التأدب بالآداب الإسلامية هذا أولا، وأما ثانيا: فأن تسعى الزوجة لإكمال نقص زوجها إن رأت منه انحرافا لا أن تقابل انحرافه بانحراف آخر من جهتها [47].

وحاربت المدنية الحديثة تعدّد الزوجات بوصفه مظهرا يدلّ على التخلّف وأنّه ينافي حقوق المرأة، فيذكر النورسي أن هذا الموضوع لم ترّ فيه المدنية مسايرة لما تدعو إليه، ويبيّن إنّ هذا الأمر يتعذر رفعه، لأنّه مستأصل في الطبيعة البشرية، ولو رفع لاقتضى قلب الطبيعة البشرية رأسا على عقب، لأنّ تعدّد الزوجات إلى أربع موافق لطبيعة الإنسان والعقل والحكمة، لقد عدّلت الشريعة ما كان سائدا أيام الجاهلية، فلم تشرّع التعدّد من الواحدة إلى الأربعة ابتداء، بل نـــزلّتها ونقّصتها من الزوجات الثمانية والتسعة إلى الأربعة، ووضعت شرائطها في التعدّد بحيث لا تؤدّي مراعاتها إلى ضرر ما، وحتى ما حصل في بعض النقاط شرّ، فهو شرّ أهون، وأهون الشرّ عدالة نسبية، إذ الخير المحض لا يمكن أن يحصل في جميع أحوال العالم .[48]

إنّ هؤلاء الأجانب قد سلبوا منّا أموالنا الثمينة وأوطاننا بثمن بخس دراهم معدودة مزوّرة، كذلك فقد سلبوا منا قسما من أخلاقنا الرفيعة وسجايانا الحميدة التي بها يترابط مجتمعنا، وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقيّهم وتقدّمهم ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم [49].

الخاتمة

وبعد، فأحمد الله تعالى على إعداد هذا البحث، الذي أتاح لي فرصة التعرّف أكثر فأكثر على شخصية واحد من أهم المصلحين الإسلاميين في العصر الحديث، لنصل إلى جملة من النتائج الهامة في موضوع تصدّيه لخطر العولمة التي تفطن لها في وقت مبكر جدّا، ومن أهمّ هذه النتائج:

أولا: إنّ التكتل في نظر النورسي هو الجدير بأن يقف في وجه العولمة، وقد تبيّن من خلال كلامه أن الإسلام وشريعته الغرّاء هي التي تظهر ثباتنا وكمالنا وتحقّق وجودنا أمامنا الأجانب، وتنقذنا من تبعات الدنيا والآخرة، وتؤسس الاتحاد العام الشامل، وتحول دون دخول مفاسد المدنية إلى حدود حريتنا ومدنيتنا، وتنجينا من ذل التسّول من أوروبا، وتطوي لنا المسافة الشاسعة التي تخلفنا فيها عن الرقي في زمان قصير بناء على سرّ الإعجاز وترفع من شأننا في زمن قصير بتوحيد العرب والطوران وإيران والساميين، وتظهر الشخصية المعنوية للدولة بمظهر الإسلام [50].

ثانيا: إنّ الاستفادة من العولمة أمر ممكن ولكن تحت شعار "خذ ما صفا دع ما كدر" الذي طرحه النورسي متنبها إلى بعض إيجابيات المدنية الحديثة.

ثالثا: إمكانية النهضة وفق حقائق الإسلام ومظاهر القوة المتعدّدة فيه يجعل من المدنية الإسلامية أثبت وأرسخ من المدنية الغربية التي تنبأ النورسي بسقوطها وتلاشيها.

رابعا: رفض كل ما تقدّمه العولمة على صعيد السياسة، بل رفض السياسة من المنظور الغربي، والبديل لذلك سياسة تعشق حقائق القرآن، وتفيض على الناس بالحرية والكرامة والشورى والأمن.

خامسا: على صعيد الاقتصاد حارب النورسي العولمة التي تقوم على الربا، ودعا إلى دفع الزكاة لتجنب ويلات اجتماعية خطيرة.

سادسا: إنّ ما حدّدته الشريعة من حقوق للمرأة في الميراث والحجاب وتعدّد الزوجات هو الحق وهو الكمال الملائم للفطرة وللطبيعة الإنسانية، ورفض رؤية العولمة الغربية في هذا المضمار.

سابعا: تلاعبت العولمة كثيرا بالمصطلحات والمفاهيم الحضارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، فوقف النورسي يصحّح هذه المفاهيم على أسس القرآن الكريم وهدايته، وكشف عوار العولمة وتزييفها وخداعها الناس بما تطرحه من شعارات ومصطلحات ومفاهيم مغلوطة.

الهوامش

1 بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ترجمة إحسان الصالحي (1992)، سوزلر للنشر. استانبول. ص: 855

2 انظر النورسي: الشعاعات، ترجمة إحسان الصالحي (1993)، سوزلر للنشر، استانبول، ص: 283-284

3 انظر : تقديم الأستاذ فتح الله كولن للمثنوي العربي النوري (1994)، تحقيق إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، ص، ت

4 انظر: النورسي، المثنوي العربي النوري، ص: 191

5 انظر: المثنوي، ص: 268-269، 9،361،338،3

6 بديع الزمان سعيد النورسي: اللمعات، ترجمة إحسان الصالحي (1993)، سوزلر للنشر، استانبول، ص: 178

7 بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، تحقيق إحسان الصالحي (1995) سوزلر للنشر، استانبول، ص: 352

8 انظر: المثنوي، ص: 360 وانظر: النورسي: الملاحق، ترجمة إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، استانبول، ص: 352

9 النورسي: المثنوي، ص: 226

10 انظر: صيقل الإسلام، ص: 444

11 انظر: النورسي، الشعاعات، ص: 431

12 انظر: النورسي، الملاحق، ص: 286

13 انظر: النورسي، صيقل الإسلام، ص: 468، 530

14 النورسي، الملاحق، ص: 377-378

15 النورسي، صيقل الإسلام، ص: 467

16 انظر: النورسي، الشعاعات، ص: 346،347

* كما حصل مع شعب الأفغان مؤخرا من قتل وتشريد وتدمير مدن وقرى ومساجد ومدارس ومستشفيات.

17 النورسي: المثنوي، ص: 181

18 انظر النورسي، الكلمات، ص: 85

19 انظر النورسي: المكتوبات، ترجمة إحسان الصالحي (1992) سوزلر للنشر، استانبول ص: 58-59،70

20 النورسي، المثنوي، ص: 183
21 النورسي، الملاحق، ص: 317
22 النورسي، صيقل الإسلام، ص: 462
23 المرجع السابق نفسه، انظر: ص: 392-394
24 انظر: الشعاعات، ص: 433-436
25 المرجع السابق نفسه، انظر، ص: 461-465
26 نفسه، ص: 467
27 نفسه، ص: 465
28 انظر: النورسي، اللمعات، ص: 186-188
29 المرجع السابق، نفسه، ص: 188
30 النورسي، صيقل الإسلام، ص: 499-500
31 المرجع السابق نفسه، ص: 494
32 نفسه، ص: 501
33 النورسي، المثنوي، ص: 276
34 النورسي، المكتوبات، ص: 61
35 أحمد درويش: تحديات الهوية العربية بين ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، مجلة المسلم المعاصر، العدد 98/ 2000،ص: 7
36 انظر: النورسي، الكلمات، ص: 856
37 المرجع السابق نفسه، ص: 855
38 انظر: النورسي، اللمعات، ص: 217،224
39 المرجع السابق نفسه، ص: 221
40 انظر: بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان الصالحي (1994) سوزلر للنشر، استانبول، ص: 54
41 المرجع السابق نفسه، ص: 54-55 وانظر الكلمات، ص: 851
42 النورسي، اللمعات، ص: 223
43 انظر: النورسي، المكتوبات، ص: 48-49
44 المرجع السابق نفسه، ص: 49
45 نفسه، ص: 612
46 انظر: النورسي، اللمعات، ص: 299-304
47 المرجع السابق نفسه، ص: 310-311
48 انظر: صيقل الإسلام، ص: 425-426
49 المرجع السابق نفسه، ص: 513
50 نفسه، انظر: ص: 525